العمارة في العصور القديمة

تمثل العمارة أحد الشواهد الأثرية القوية التي تدل على استيطان الإنسان في مكان ما واستقراره به. وترتبط نشأة العمارة بشكل عام، بوصفها ظاهرة أثرية، بالعصر الحجري الحديث، لأنه الزمن الذي بدأ الإنسان فيه الإقامة في أماكن ثابتة نتيجة للتغيرات البيئية التي أجبرته على العمل الجاد وإنتاج ما يحتاج إليه بالإقامة واستغلال موارد الطبيعة من حوله، ومن الناحية الأخرى وصل الإنسان -في ذلك العصر- إلى درجة من التقدم التجريبي والتفتح الذهني بوأته مكاناً يؤهله ليحول بقعة الأرض التي يعيش فيها إلى مكان إنتاج، بمعرفة أسرار تكوين ذلك المكان.

والعمارة التي احترفها إنسان العصور القديمة، ظاهرة حضارية متنوعة ومتطورة لتنوع الوظائف التي تؤديها وتجددها. ولم يستطع الإنسان استحداث كل الخصائص المعمارية في وقت واحد. ولما كان الإنسان متطوراً في معارفه وحاجاته، فإن العمارة كانت تسير جنباً إلى جنب مع ذلك التطور، شأنها شأن المظاهر الحضارية الأخرى. فحاجة الإنسان، مثلاً، اقتضته أن يوجد مأوى له، فبحث عن ذلك وطوره على مر القرون. وبعد تطور المفاهيم الدينية والروحية بشكل عام وجد الإنسان أنه بحاجة لإيجاد أماكن يمارس فيها هذه الشعائر، فعمل على إقامة المعابد وطورها. وبعد تعلمه عادة الدفن احتراماً لمن مات، أوجد المقابر ليواري موتاه فيها، كما طورها عبر الزمن تبعاً لوضعه الديني والاقتصادي والزمني وتأثره عبر اتصالاته الخارجية بالحضارات الأخرى. وبعد أن بدأت التجمعات الكبرى للإنسان في الظهور، بدأ بإنشاء الأماكن العامة، مثل المسارح والحصون والأسواق والملاعب الرياضية وما شابه

ذلك. إذن فإن الأمر يجري على سنة التطور، بشكل عام، وليس عفوياً، إنما تقف خلفه الحاجة والإنسان الجاد. فهذه الظواهر لم تتطور في جميع الأماكن بمستوى واحدٍ، إنما هناك فروق يحدثها جد الإنسان أو تهاونه، كما هي الحال في العصر الحاضر.

والإنسان عاش ما يقرب من المليوني سنة في تجوال وترحال من مكان لآخر بحثاً عن قوته. وخلال هذه الفترة لم يكن الإنسان بحاجة، ولم تكن لديه الخبرة لعمل كهذا، لإقامة أماكن يستقر فيها. فيعتقد أن الإنسان لم يؤلِّف آنذاك كيانًا اجتماعيًا، إنما كانت لديه القدرة على التعايش مع أبناء جنسه تعايشاً في أزواج منفردة تعيش حياة تنقل وترحال وتكتفي من الغذاء بما تجده في الطبيعة من حولها.

وفي نهاية العصر الحجري الوسيط، أي قبل حوالي ٩٠٠٠ سنة، بدأ التطور السريع في الحضارة الإنسانية، والتغير الحاد في البيئة الجغرافية. فأصبح الإنسان مفكراً وملاحظاً وقادراً على إيجاد الحلول. وتغيرت البيئة فدفعت مواهب الإنسان لتتبلور عن أشياء ملموسة. وهذا أدى في نهاية المطاف إلى تعريف الإنسان بقيمة الاستقرار وتطويع الطبيعة لخدمته باستغلالها لصالحه. فظهرت القرى والتجمعات البشرية الصغيرة المستقرة، مما قاد بسرعة وجيزة، قياساً بما مضى، إلى ظهور المدنيات الأولى خلال ما يعرف باسم العصر الحجري الحديث، فبدأ الإنسان بتشييد ملاجئ لتأدية وظائف متنوعة.

العمارة السكنية

كان للاستقرار الزراعي أثره الواضح في محاولة إقامة المسكن في حياة الإنسان القديم، وربما كان ذلك منذ أواخر العصر الحجري الوسيط وأوائل العصر الحجري الحديث. وكان هذا السكن يناسب بساطة ذلك الإنسان في نظام حياته. وبمرور الزمن وثبات الاستقرار أخذ التطور في نظام المسكن يسير حثيثاً، وهو الأمر الذي تتبعنا مراحله عبر العصور القديمة في هذه المنطقة. وقد كشفت الحفائر في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية عن بقايا جدران أمكن بها تحديد أنواع معينة من عمارة هذا الإنسان.

العصور الحجرية. تفيد الأبحاث الأثرية أن الإنسان استوطن الجزيرة العربية خلال أقدم فترة استيطان عرفت في العالم القديم، أي قبل مليون وربع المليون سنة قبل الميلاد، أو خلال ما يعرف باسم

حضارة الألدوان. واستمر في استيطانه لها خلال الفترات اللاحقة حتى اليوم الحاضر. وكما هو مجهول في بقاع العالم القديم، فإن العمارة السكنية لإنسان العصور الحجرية السابقة للعصر الحجري الحديث في الجزيرة مجهولة أيضاً.

واستناداً إلى الدراسات المناخية والبيئية يفترض أن الجزيرة كانت شيئاً يختلف عما نشاهده اليوم. فيعتقد أن بطون الأودية الموجودة اليوم كانت أنهاراً، وأن بقايا البحيرات الجافة وشبه الجافة كانت بحيرات أغزر ماء، وأن القفار الخالية كانت غابات تكثر فيها الحيوانات المتنوعة. ولذا فإن نمط الاستيطان شبيه بما كان معروفاً في الأقطار الأخرى.

وتنبئ الأبحاث المنجزة في مواقع العصر الحجري القديم، مثل مواقع الشويحطية في شمال المملكة، ومواقع وادي صفاقة في وسطها، وغيرها من المواقع أن الإنسان عاش بالقرب من بحيرات قد جفت كلها، وعلى حواف أنهار صغيرة كانت تغذي تلك البحيرات. ووجد حول هذه الأماكن عدد من الكهوف التي ربما ارتادها الإنسان آنذاك ليس للإقامة فيها، بل للالتجاء إليها والاحتماء بها خلال الظروف الطبيعية الصعبة التي لا يستطيع مقاومتها، كالرياح العاتية، وزوابع الأمطار، وهجوم الحيوانات المفترسة.

ويعرف عن إنسان تلك العصور أنه استطاع أن يوجد لنفسه أماكن يأوي إليها مستفيداً من الظواهر الطبيعية، مثل الكهوف، فالكهف منزل طبيعي داخل جذع جبل أو في عرضه، ولكن ينقصه فقط تقسيمه من الداخل وإيجاد بوابة له، ولذا استغل الإنسان ما خلقه الله من تكوينات صخرية جبلية بإكمال ما يلزم، فقسّم الكهف ليجعل منه غرفاً مستقلة بعضها عن بعض، ووضع حجارة ليصنع بها باباً. واكتشفت في جنوب غرب المملكة كهوف من المؤكد أن الإنسان ارتادها لمدة من الزمن بدليل تجميله لها بالرسوم التي وجدت على الجوانب الداخلية لتلك الكهوف.

وثمّ بالإضافة إلى ذلك مغارات في الجبال على شكل مآوٍ، وبالقرب من تلك المغارات أحياناً منابع مياه. وقد استطاع الإنسان آنذاك أن يستفيد من تلك المآوي ببناء سياج لمدخل المغارة، قد يكون من الخشب، أو الحجارة المردومة، أو أي مادة أخرى متوافرة له، وبهذا يصبح المكان كغرفة سكن. ويعتقد أن الأشجار الكثيفة المتقاربة والعالية ذوات الأغصان القوية، شكلت أماكن يأوي إليها الإنسان، وذلك

بعمل أكـواخ على الأشجار هروبـاً من الحيوانات المفترسة والزواحف السامة وأي مهاجم آخر. كما يفترض بعض الباحثين أن الإنسان استفـاد من جذوع الأشجار نفسها، خصوصاً عندما تكون متقاربة، إذ عمل على إيجـاد سياج يدور حولها مكوناً مكـاناً آمناً يحفظه مـن الأمطار، والريـاح، والحيوانات، وقـد يمنع عـنه الإنسان المعتدي. ومثل تلك المنشآت التي من شأنها التلف لا يبقى لها أثر شاخص.

ويعـتقد البـاحثون أن الإنسـان بدأ بالإقامة المؤقتة فـي الأماكن التي يتوافر فيها الماء وتنبت فيها الأعشاب والمحاصيل البرية، مثل الحـبوب وغيرها. كما بدأ كذلـك بزراعـة بعض المحـاصيـل من الحبوب اعتماداً على مياه الأمطار. ولذا فإنه بدأ الإقامة والتجمع الباكر في (أواخر العصر الحجري الوسيط وأوائـل العصر الحـجري الحـديث، أي قـبل ٩٠٠٠ سنـة). فأخذ يشـيد لنفـسه بيـوتاً من الأصواف عـلى شـكل خيـام منـفردة يجمعها مكـان واحد، كما شيد النظام المنزلي نفسه من المواد الخشبية.

وبعد الإقامة الـفعلية وجد الإنسان أن مثل تلك المواد غير مناسبة، فهي لا تسـتمر طـويلاً، ولا تقـاوم متـغيرات الطبيعة، مثل العواصف والأمطار. ولذا بدأ يفكر في تشـييد منازل أكثر تحملاً، ومن هنا بدأت الاستفادة من المواد الطبيعية التي تحتاج لجهد عضلي أكثر ومعرفة ذهنية

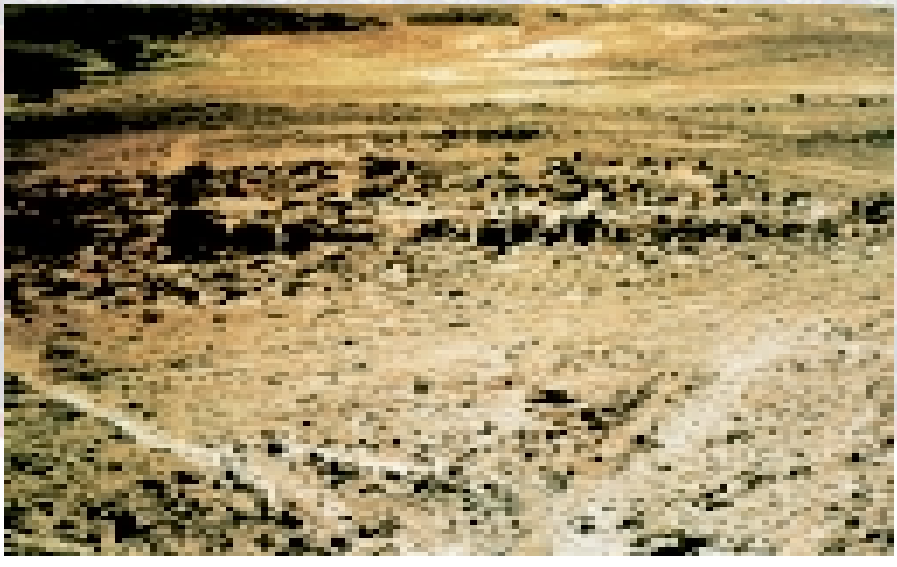

بناء حجري بيضاوي الشكل – موقع الثمامة – شرق الرياض

أدق، مثل الحجارة في تشييد المنازل. وقد اكتشف في موقع أم وعال مكان أثري يحتوي على ٢٠-٣٠ من الدوائر الحجرية، بعضها بسيط، أي يوجد بأشكال منفردة، وبعضها معقد التركيب إذ توجد مجموعات منها متداخلة في مكان واحد، واكتشف لها أسوار وفيها مجاري مياه. كما اكتشف في موقع بالقرب من بلدة العيينة غرب الرياض، بقايا مبانٍ حجرية وجد حولها مجارش تدل على الإقامة الفعلية وممارسة إعداد الحبوب كغذاء، وهذا أمرٌ يدل على امتهان الزراعة إلى جانب تشييد المنازل. ويظهر أن غرف الوحدات السكنية كانت شبه مستطيلة إذ وجد منها ما تبلغ أبعاده ٥×٦م و٦×٨م. كما اكتشفت بقايا جدران تمتد لمسافة تصل إلى ٢٦م مما يوحي باستخدام نظام الأسوار في ذلك الموقع.

ومع نهاية الألف السادس قبل الميلاد توصل الإنسان إلى إقامة المنازل في مستوطنات لاشك في وجودها، فهناك أدلة مؤرخة بالكربون المشع في مواقع في شرق المملكة، مثل موقع عين قناص، تفيد أن الإنسان استخدم المادة الطينية فشيد بها جدراناً لغرف مستطيلة، وزودها بمواقد مستطيلة أو دائرية الشكل، شيدها باستخدام المونة الطينية المطلية بطبقة جصية. وأنه أحياناً أخرى استخدم في بنائها الجدران الجيرية وأحاطها بأسوار دائرية، وزود هذه الجدران بطبقة من الملاط الجصي.

موقع عين قناص – الأحساء

كما تفيد الأبحاث في هذه المواقع أن الإنسان استمر في استخدام المادة الخشبية في تشييد الأسوار، وقام بطلائها بمادة طينية أو جصية. كما تفيد كثير من المواقع التي تم اكتشافها في أجزاء مختلفة من المملكة، وخصوصاً على سواحلها، أن أماكن الإقامة كانت تشيد بمادة خشبية على هيئة أكواخ فردية تأخذ شكلاً بيضيا.

وخلال هذه الفترة تمكن الإنسان من استخدام الحجارة في عمارته، تارة يهذبها وأخرى كما يجدها في الطبيعة. وكان اختياره لنوع الحجارة تمليه عليه طبيعة المكان وتوافر الحجارة. ففي الوسط والشرق كان استخدام الأحجار الجيرية في العمارة أمراً شائعاً. أما في الشمال والشمال الغربي فكان استخدام الأحجار البازلتية والرملية والجرانيتية هو الشائع.

ولم تكن العمارة السكنية ذات تخطيط مميز، ويبدو أنها بدأت مستوحية تخطيطها من الانتشار الأفقي لمنازل الخيام التي كانت شائعة في العصر السابق، كما أنها في بعض المواقع جاءت على التقسيم القائم على المنازل الفردية الذي سبق ذكره.

وقد اكتشفت منشآت متنوعة ثبت أنها أماكن للسكن، وقد يدل هذا التنوع على تدرج زمني على الرغم من أنه لم يدرس بعد كما تفيد المصادر المتوافرة اليوم. ويشمل هذا التنوع المساكن الدائرية، والمستطيلة، على هيئة نعل الفرس. وتعد المساكن الدائرية أكثر هذه الأنواع شيوعاً.

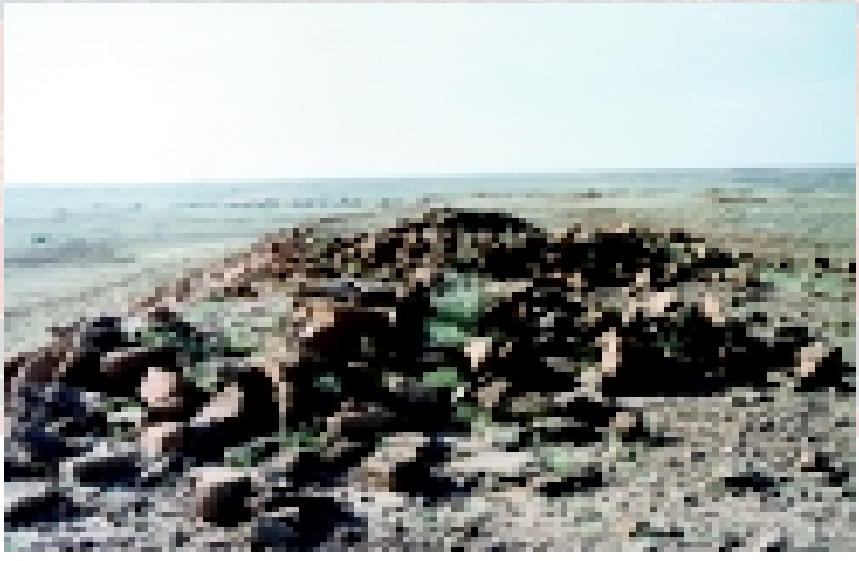

دوائر حجرية – ضرما – منطقة الرياض

وقد شيدت المساكن الدائرية في أماكن مختلفة تتباين فيها أعداد المساكن. فبعض الأماكن يضم عدداً قليلاً، وبعضها تجمعات كبيرة في أماكن أخرى، ويوجد إلى جانبها منشآت استخدمت لأغراض أخرى مثل المقابر والمنشآت المذيلة وأماكن التعبد، مما يوحي بأن هذه التجمعات تمثل مستوطنات دائمة وكبيرة المساحة.

وشيدت الدور الحجرية باستخدام الكتل الحجرية التي يختلف نوعها وحجمها وأسلوب بنائها من مكان لآخر. فمنها ما وضع على نحو رأسي، ومنها ما وضع على نحو أفقي. وقد تكون الحجارة المستخدمة على هيئة صفائح أو كتل حجرية صلبة من حجر البازلت أو الحجر الرملي أو حجر الجرانيت أو الحجر الجيري. وتستخدم في بعض الأحيان الحجارة والجلاميد، لملء الفراغ بين الكتل الحجرية الضخمة. ولم يرد فيما نشر من مادة علمية ذكر لاستخدام أي مادة لربط الكتل الحجرية. ويثبت ما اكتشف من هذه الدوائر استخدام مدماكين أو أكثر من الكتل الحجرية بقطر يبلغ أحياناً ١٢م للدائرة الواحدة.

ويختلف التقسيم الداخلي للمبنى من دارٍ لأخرى. فمن هذه الدور ما وجد بحجم صغير وكأنه مخصص لسكن عائلة واحدة، أو زوج من الناس. ويبدو أن عدداً من الدور المتراصة بعضها قرب بعض كان كل منها يشكل مبنى منفصلاً،

دوائر حجرية – شعيب البولي – الحدود السعودية العراقية

كما هي الحال في استخدام الخيام أو بيوت الشعر، ويجمعها سياج دائري أحياناً. ووجد في داخل بعض هذه الدور أساسات لجدران يعتقد أنها كانت قواطع لغرف داخلية. ويبنى في هذه الدور عادة مواقد من الحجر بقطر يصل إلى ٥٠سم في أغلب الأحوال، كما زود بعضها بقنوات مياه لا يعرف كنهها حتى الآن. وتحاط الدار أو عدد من الدور الصغيرة، في أغلب الأحوال، بسور يبنى بالحجارة غير المتناسقة وغير المهذبة، وقد وجد من هذه الأسوار ما ظل قائماً بارتفاع نصف متر. ويكون السور في بعض الأحيان مشيداً بجدارين، جدار خارجي وجدار داخلي. ويكون الجدار الخارجي أقل جودة من ناحية الإنشاء المعماري، فهو مكوّن من كتل كبيرة من الأحجار، أما الجدار الداخلي فيشيد بكتل متشابهة وضعت أفقية ورأسية على التوالي مظهرة مجموعة من الدعامات التي وجد منها ما يصل ارتفاعه إلى نصف متر. بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم، في بعض الأحيان، فن بناء المصاطب في عمارة هذه الدور، إذ نجد الدار مشيدة على مصطبة، وفي بعض الأحيان تكون المصطبة أقل مستوى من الدور. وتُلحق بالدور عادة ملحقات خارجية خصصت لاستخدامات مختلفة تكون في الغالب مشيدة بحجارة أصغر من حجارة الدور وتحاط بأسوار أقل سمكاً من أسوار الدور الرئيسية. وقد وجدت أدلة على استخدام حطام الطواحين المتكسرة في بناء بعض جدران تلك الدور، وهذا دليل على استخدام الحبوب المجروشة وعلى الإقامة الطويلة. وتبنى جميع الجدران، سواء جدران الملحقات أو جدران الدور أو جدران الأسوار، فوق الأرض مباشرة ولا تحفر لها أساسات، على الرغم من اكتشاف حفريات في بعض الدور يصل قطر بعضها إلى ٣٠سم وعمقها ١٥سم محفورة في الصخر، ولم يتوصل الباحثون بعد إلى تفسير لسبب وجودها. ويبدو أن البناء يعتمد على ضخامة الحجر، الذي قد يكون هو نفسه أساساً لمبانٍ قد زالت، مثل المباني الطينية، أو قد يكون الجدار مثبتاً بقطعة ضخمة من الحجر على رأسه الأعلى. كما يعتقد أيضاً أنها كانت أساسات لتشيد عليها مبان من مواد تتلف، مثل الخيام أو الأخشاب.

وخلال هذه الفترة الزمنية استُخدم أسلوب في العمارة ما يزال نمطه غير واضح لعدم توافر الدراسات الكافية حوله. وقد وجدت المواقع الدالة على

استخدامه في المنطقة الشمالية، خاصة في موقع الرجاجيل، وفي المنطقة الوسطى حيث وجد في أكثر من أربعة مواقع، أهمها موقع الثمامة، وموقع في جنوب الرياض على بعد ٣٥كم، وفي وادي مَرْخ بمحافظة السليل، وآخر في وادي مريخة في المحافظة نفسها، وموقع مجيرة المسجل برقم ٢٠٦-٨٩ في إدارة الآثار والمتاحف، وموقع الملح رقم ٢١٢-٨٣، وموقع بالقرب من ضرما يحمل الرقم ٢٠٧-٤٣، ومواقع في الحاير جنوب مدينة الرياض، وعدة نماذج في الشماسية شرق القصيم، وموقع خبة التماثيل في منطقة تبوك.

ويلاحظ في هذه المواقع استخدام إنشاءات معمارية مبنية باستخدام أعمدة منصوبة بارتفاع يزيد في بعض الحالات على مترين وعرضه متر واحد. كما تزود الإنشاءات بملحقات مشيدة باستخدام ألواح حجرية، وجد من بينها ما يصل ارتفاعه إلى ٤٠سم، وتتباعد عن بعضها بمقدار ٣٠سم، وتكون مصفوفة في خطوط طولية. ويعتقد أن الأهالي أخذوا الألواح ذات الارتفاع الذي يبلغ نحو مترين لاستخدامها في تشييد منازل أحدث. وليس هناك معلومات عن كيفية تثبيت تلك الألواح، ولا كيفية تثبيت

أعمدة الرجاجيل – منطقة الجوف

المبنى عليها، كما يبدو أن المونة لم تستخدم لربط أو تثبيت الألواح الحجرية.

وخلاصة ما تقدم أن الإنسان عرف تشييد العمارة في هذا البلد في أوائل العصر الحجري الحديث، وتوصل إلى استخدام الطين والحجر والجص، ونظام الأسوار في أوائل العصر الحجري الحديث الفخاري. كما يبدو استمرار تخطيط منازله كتقليد لتجمعات مساكن الشعر والخيام والأكواخ الخشبية، ثم استحدث نظام التقسيم الداخلي، وبناء الملحقات، واستخدام المصاطب.

وتشهد الدلائل الأثرية على أن هناك استيطاناً واضحاً حدث في الجزيرة العربية خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اكتشف عدد من المواقع في شرق ووسط وجنوب غرب المملكة ترجع إلى تلك الفترة تحتوي على آثارٍ معمارية. ويشهد تل تاروت بذلك، على الرغم من أن التنقيب لمّا ينته فيه بعد، إذ لا يعدو عمل مجسات قليلة لا تزيد على ثلاثة مجسات. والواقع أن الإنسان في جزيرة تاروت، في شرق المملكة، استمر في استخدام الطين لتشييد منازله في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. كما استخدمت مادة الطين للغرض نفسه في منتصف ذلك الألف حتى نهايته، بالإضافة إلى استخدام الأحجار الجيرية في بناء المنازل. أما في الأجزاء الأخرى من المملكة فيبدو أن مادة الأحجار الرملية والجيرية كانت من مواد العمارة المستخدمة؛ إذ استمر استخدام نظام الدور الحجرية المذكورة سابقاً. ويصعب علينا في الوقت الحالي تحديد الفرق بين ما كان يستخدم في هذه الفترة وما كان يستخدم في الفترة التي سبقتها لعدم وجود مصادر كافية للمعلومات.

وخلال الألف الثاني قبل الميلاد عُرِف عدد من المواقع التي ترجع لهذه الفترة، وتظهر التنقيبات الأثرية فيها استخدام مادة الطين في العمارة السكنية، ومادة الأحجار التي كانت تستخدم في أساس الجدران. كما يبدو أن الطوب الطيني البني اللون، المجفف تحت أشعة الشمس المربوط بالمونة الطينية قد استخدم لإقامة جدران منازل مرتفعة، كما يحدث الآن، كما استعملت الأخشاب التي كانت تكسى بالطين وأغصان الأشجار في تسقيف المنازل.

وإلى جانب استخدام المادة الطينية في العمارة، استخدمت المادة الحجرية في أجزاء كثيرة من المملكة لتشييد منازل من المحتمل أنها كانت استمراراً لمنازل العصر الحجري الحديث، والألف الثالث قبل الميلاد. ومن أساليب العمارة المساكن المشيدة بالحجارة على هيئة نعل الفرس بطول قدره ثلاثة أمتار، وعرض يبلغ مترين. مع استخدام الحصى والجلاميد الصغيرة. كما يظهر الشكل الآخر بهيئة مستطيل مبني بالحجارة والجلاميد، ويزود بمدخل واضح تماماً وجدران للتقسيم الداخلي، ويزود في بعض الحالات بمرافق خارجية. ويظهر الشكل الثالث بهيئة دائرية أو بيضية لها شبه استدارة كاملة، أو بهيئة شبه دائرة. كما أن هناك شكلاً رابعاً يظهر على هيئة حرف U اللاتيني

مفتوح من طرف واحد. وتزود المساكن غالباً بمواقد دائرية غير منتظمة مبنية بالحجارة الصغيرة ويقل قطرها عن متر.

وفي جميع تلك الأشكال استخدمت حجارة خشنة غير مهذبة وضعت كيفما اتفق، ولم يستخدم أي نوع من المونة لربطها. ويظهر أن الجدران ارتكزت على الأرض مباشرة من دون أساسات، ويعتقد بعض الباحثين أن ما وجد من هذه الجدران ربما كان يشكل أساساً لمبانٍ من مادة قابلة للتلف. وإن صح ذلك فهو استمرار لتقليد قديم سبقت الإشارة إليه.

وبإيجاز فإن إنسان هذه المنطقة أقام في العراء لمدة طويلة من الزمن خلال العصور الحجرية القديمة، وارتاد الكهوف والمغارات في الأوقات العصيبة. وتمكن خلال العصر الحجري الحديث قبل ٩٠٠٠ سنة من تشييد أماكن دائرية وبهيئات أخرى باستخدام الأحجار المتوافرة له ليقيم فيها. وفي نهاية الألف السادس قبل الميلاد، وخلال العصر الحجري الحديث الفخاري، تمكن من استخدام الطوب الطيني في بناء مساكنه مع استمراره في استخدام المادة الحجرية المتوافرة له. وخلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد استخدم المادة الطينية في عمارة مستوطنات بمساحة كبيرة لّما ينقب عن شيء منها بعد، باستثناء عمل مجسات. وقد استمر هذا التقليد في الفترات اللاحقة مع حدوث تطور ملحوظ، يوضحه ما حفر من مواقع تلك الفترة.

عصر الممالك العربية. جاء في لسان العرب في تعريف السكن: والسكن والمسكن والمنزل والبيت... والسكن أيضاً سُكْنى الرجل في الدار. وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيره. وتخضع المساكن في الجزيرة العربية بصفة عامة لعدة عوامل، منها ما يتعلق بالمكان، والظروف البيئية، كالسواحل والجبال والصحاري وما يتبعها من ظروف مناخية كالأجواء المطيرة والجافة والحارة والباردة، ومنها ما يتعلق بتغير الزمان من حيث الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولهذا فإن نمط المسكن ومكان إقامته وتخطيطه تحكمه تلك العوامل. والسكن نقلة تاريخية في حياة الإنسان الحضارية التي اصطلح على تسميتها الاستيطان الدائم لدى المختصين في علم دراسة الإنسان.

مساكن الحضر: ذكرنا في فصل سابق أن الممالك العربية سبأ وحضرموت، وقتبان، ومعين، وما تلاها من تحالف قبائل سبأ وذي ريدان وحضرموت

ويمنت، سميت حمْير واتخذت من جنوب الجزيرة العربية قاعدة لها، ومسرحاً لنشاطاتها السياسية والاقتصادية والدينية خلال الألف الأول قبل الميلاد. واستمر ذلك النشاط حتى نهاية القرن السادس الميلادي، الذي شهدت أحداثه تخلخلاً في الأوضاع الاجتماعية وركوداً اقتصادياً وانحلالاً سياسياً نتيجة الصراعات الدينية بين اليهودية والمسيحية والوثنية. فأدى ذلك إلى تدخل الأحباش سنة ٥٢٣م واحتلالهم المنطقة وبقائهم حتى سنة ٥٧٥م ليفسحوا المجال بعدها للاحتلال الفارسي الذي بقي حتى ظهور الإسلام ودخول اليمن كافة تحت رايته سنة ٦٢٨م.

ولا شك أن عصر الممالك العربية، ولاسيما خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، شهد نظاماً سياسياً مستقراً أدى إلى انتعاش اقتصاد المنطقة وازدهار تجارتها، الأمر الذي دفع إلى نمو حواضرها ورقي مجتمعاتها. فمأرب وقرنو وتمنع وشبوة كانت عواصم ذات حضارة راقية وفن متقدم. وفي المملكة العربية السعودية من بقايا تلك المدن المندثرة نجران وجرش في الجنوب والجنوب الغربي وقرية الفاو جنوب منطقة الرياض، وفيها الجرهاء، وثاج في المنطقة الشرقية، وهناك قريّة وتيماء في منطقة تبوك، والحجر (مدائن صالح) في منطقة المدينة

جانب من أسوار مدينة تيماء

المنورة، فضلاً عن مكة ويثرب اللتين يغني ذكرهما عن التعريف.

وتحدثنا المصادر الأولية، التي أكدتها الحفريات الأثـرية، أن البنّاء في عصر الممالك العربية لم يكن مهندساً معمارياً فحسب، بل كان فناناً ماهراً. فـهو لم يكـتف بـهندسـة الحجـارة وصقـلها وتزيـينها، بـل اهتم كـذلك بالألـوان والمظاهر الخارجية للبناء، حين استعمل الحجارة الملونة في تشييد البناء، فكوّن مناظر متعددة الألوان، محاكاة للطبيعة وتأثيراً عـلى النظر، وأخذاً للألـباب. فقصر غمدان مثلاً بُني من حجارة ذات ألوان متعددة، إذ جعلت مداميك حيطانه من أحجار مخـتلفة الألوان، فمدماك بحجارة بيضاء يليه مدماك بحجارة سوداء ثم آخـر بحجـارة خضراء، فـحجارة حمراء. أما داخـله فتتجلى فيـه براعة التخطيط وجمال الزخارف وتنوع المزايا الجماليـة. يذكر سترابو Strabo، وهو مؤرخ وجغـرافي يونانـي رافق حملـة أليـوس جاليوس Aelius Galius قـائد الحملة الـرومانية على جنـوب الجزيرة العربية سنة ٢٤ق.م، أن سقوف المباني وأبوابها وأعمدتها وبعض جـدرانها قد كسـيت بـصفـائح الـذهب والـفضة وبالأحجار الكريمة والعاج، إضافة إلى الأخشاب الغالية الثمينة مما أكسب تلك المباني روعة وجمالاً.

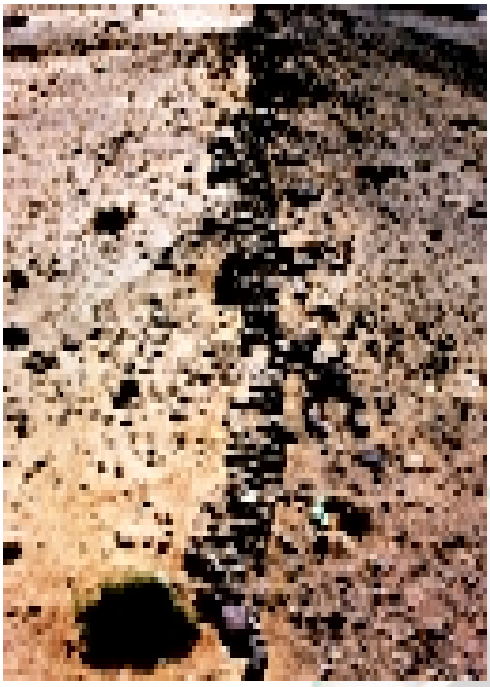

صورة توضح امتداد جزء من سور تيماء

وصناعة الـبناء في الجزيرة الـعربية منحصرة في أهل الحضر، وهـم سكان المدن والقـرى المستقـرون الذين يتـركز اقتصادهم على الزراعة والتجارة ومزاولة الحرف. وأبنية المساكن مختلفة متفاوتة، منها البناء بالحجارة، ومنها البناء باللبن، وبالآجر، وبالطين. وهي عـلى أوضاع مختلفة وأشـكال متفاوتة. فمن الأبنية الدار، التـي جاء في المخصص ذكـرها بأنها: البيت والدارة والمنزل والمنزلة والمباءة والمعان والمأوى، ويقـال لصحن الدار:

حر الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبحبوحتها، وفي الدار: البيت وجمعه أبيات والكثير البيوت، والمخدع: البيت في البيت، والنفق والسرب: البيت تحت البيت، والغرفة فوقه، وهي العلية وجمعها علالي، والخزانة، وهي التي يحفظ فيها الشيء، والمرقد: المضجع. ومن أجزاء المسكن الحائط والجدار وهو ما أطاف من البناء بالشيء، والأس أصل الحائط. وفي الدار الصُّفَّة وجمعها صفاف، ومنها الشرقية التي تقابل المشرق والغربية التي تقابل المغرب، والمضوء مكان ظله دائم، والزاوية ملتقى الحائطين في البيت، والكوة المثقب في أعالي البيت ويقال لها: الشاروق، وهي القترة، فتحة في سقف غرفة الطبخ تعلو الموقد وينفذ منها الدخان، ولا تكون إلا في سقف ليس فوقه بناء، وما تزال تعرف بهذا الاسم وتؤدي الوظيفة نفسها في مساكن المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية من المملكة. وقد وردت في حديث عن الرسول ﷺ رواه أبو أمامة: من اطلع من قترة ففقئت عينه فهي هدر. وفي لسان العرب، القُترة، بالضم: الكوة النافذة وعين التنور، والمراد الأول. وتسمى القترة في القصيم النبر، ومنها نوع مربع الشكل له غطاء يحرك بحبل ويسمى (كشاف) ويسمى في الخرج والمنطقة الشرقية الباقدير. والمشكاة التي في الحائط يقال لها الأوقة، ويقال للسطح: الإجار والصهوة، وسقف البيت أعلاه الداخلي، وسمكه ما بين قراره إلى سقفه. والطاية السطح ومربد التمر وكان السطح يسمى الطايه إلى عهد قريب في نجد. والدرج ما يرتقى به إلى السطح، فإن كان من خشب فهو السلم والعتب، وكل مرقاة منها عتبة والجمع عتب وعتبات، والفرغ الخلاء بين المرقاتين، والتفاريج والطنف آجر أو نحوه يجنح به أعلى الحائط ليقيه المطر، وهو الكنه والإفريز، ومنها أفرز حائطه وطنفه. والعلاوة أعلى الحائط الذي لا يغمى، وقد يكون الطنف قراميد وهو الآجر الطويل. والهرادة من الخشب لأعالي الحيطان والنجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره، والعرس حائط أو أسطوانة يقام في البيت يوضع عليها طرق الجائز أو الجيز وهو العارضة، والراقد خشب فوق العارضة (الحمام). وفي البيت الكنيف، ويقال له الحش والمستراح والمخرج، أما الكرياس فالكنيف على السطح بقناة إلى الأرض وربما كان ناتئاً مكشوفاً، والمرحاض المغتسل، والمزراب أو الميزاب هو المثعب، ويكون من الخشب

وغيره لتصريف المياه من أسطح المساكن، والبالوعة حفرة مغطاة في وسط الدار. وفي المسكن المطبخ وهو موضع الطبخ، والمخبز موضع التنور، والمسعر والوطيس والتنور والهيلم واحد، والكرامة طبق التنور، والمناقة حجره، والساعور تنور صغير في الأرض. ومما يتصل بالمسكن الاصطبل ويجمع على اصطبلات وأساطب، وفيه المربط وهو الموضع الذي تربط فيه الدواب، والمزود موضع علوفة الدابة.

ومن المساكن القصر، ويقال له: المجدل والفدن والقصر، والصرح وهو كل بناء مرتفع. والأطم والأجم الحصن، وجمعها آطام وآجام. والسور حائط المبنى، والربط حائط حول السور، والشرف ما أشرف فوق الحائط واستشرف الناس من ورائه.

مساكن الأعراب: الأعراب مشتقة من لفظة عرب، وهي صفة لسكان البوادي في الجزيرة العربية الذين يعتمدون على رعي الإبل والأغنام أو كليهما، وتكون حيواناتهم هي الركيزة الاقتصادية لمعيشتهم. وتقوم حياة البدوي على الارتحال من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء وطلباً للكلأ، فإن استقر في مكان ما فإقامته مرهونة بتوافرهما. وخلافاً للمصطلح العام في علم الإنسان الذي يعرف حياة البدو بأنها التنقل والارتحال، فبدوي الجزيرة العربية، وإن مارس الظعن والانتجاع، إلا أنه يمارس ذلك ضمن منطقة جغرافية معروفة وحدودٍ إقليمية معينة. وظعنه وإقامته محكومة بأعراف قبلية متفق عليها، وهي ملزمة للقبيلة عامة والفرد بصفة خاصة ولا سبيل إلى الخروج عنها أو التنصل منها. ولعل الإقامة الفصلية أفضل تعريف لحياة أعراب الجزيرة العربية، وهي مرحلة أرقى من حياة التجوال، وأدنى من حياة الاستقرار الدائم. وفي بيئة هذا شأنها تنحصر أهمية المسكن فيما يفي بالحاجة ويحقق المقصود، إذ لا مجال لمسايرة طموحات الذوق أو إرضاء العواطف.

ومساكن الأعراب خِباء من صوف، أو بِجَاد من وبر، أوقُسطاط من شعر، أو سُرادق من قطن. ومن بيوتهم القشع وكانوا يتخذونه من الجلود، والقشع الجلد اليابس. والطراف بيت كان الأغنياء منهم يتخذونه من الأديم، قال الشاعر:

رأيت بني الغبراء لا ينكروننـي
ولا أهل ذَيَّاك الطراف الممدد

والحظيرة بيت كانوا يتخذونه من شذب، والشذب هو ما يقطع مما تفرق

من أغصان الشجر، والكبة بيت يبنى من اللَّبِن. وعلى الرغم من تعدد الأسماء وتنوع المادة المستخدمة في البناء، فالمسكن البدوي يتسم بالبساطة وأداء الغرض وسهولة النقل وقلة الكلفة. والبدوي لا يرى في مساكن الحضر وما تحلت به من فنون ميزة على خيمته، بل نراه يمقت قصورهم ويزدري نمط حياتهم. ولا تقل نساء البدو عن الرجال في التعلق بحياة الصحراء والتغني بسكنى الخيام. يروى أن ميسون بنت بحدل الكلبي بدوية من نجد تزوجها معاوية ونقلها إلى الشام، وكانت تكثر الحنين إلى أناسها، والتذكر لمسقط رأسها. فسمعها ذات يوم تنشد هذه الأبيات:

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إليّ من لبس الشفوف
وأصوات الرياح بكل فج
أحب إليّ من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق عني
أحب إليّ من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب
أحب إليّ من بغل زفوف

ثم إنه فارقها وأعادها إلى قومها وديارها. وهي أم ولده يزيد. وفي هذا السياق يروى أن امرأة ضبية تسمى حسانة جلست على بركة في روضة بين الرياحين والأزهار في ألطف وقت وأبهجه – وكانت قد احتملت من البادية إلى الحضر– فقيل لها: كيف حالك هنا؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية؟ فأطرقت ساعة، ثم تنفست وقالت:

أقول لأدنى صاحبي أسره
وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه
لعمري لنهر باللوى نازح القذى
بعيد النواحي غير طرق مشاربه
أحب إلينا من صهاريج مُلِّئت
للعب ولم تملح لدي ملاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبته بالعشي هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه
وأقسم لا أنساه مادمت حية
ومادام ليل من نهار يعاقبه
ولازال هذا القطر يسفر لوعة
بذكراه حتى يترك الماء شاربه

إنه شعور عفوي نابع من عواطف صادقة وغريزة مكتسبة التزمت بها المرأة البدوية. وهو إحساس لم يرتبط بمرحلة تاريخية معينة، وفترة عصر الممالك العربية ليست إلا حلقة من سلسلة طويلة لتاريخ الجزيرة العربية، والمرأة البدوية كان ذلك

شأنها، وما يزال كذلك حتى يومنا هذا. والمسكن في حياة البدوي وسيلة وليس غاية، فإذا فاخر بدوي حضرياً بسعة خيمته وطول دعامتها فإنما ذلك كناية عن المثل الراقية والعادات الكريمة التي تمارس في ذلك النزل، من إكرام للضيف، وإغاثة للملهوف، وإيواء للمستجير، وهي معان سامية في حياة العرب. وقد أسهب ابن خلدون في مقدمته في مبحث حياة سكان البوادي انطلاقاً من مساكنهم ومنازلهم وانتهاء بطبائعهم وأخلاقهم.

ولا تكاد الكشوفات الأثرية التي تمت في أنحاء متفرقة من المملكة تسعفنا بما يعول عليه في هذا المبحث. وسبب ذلك أن طبيعة المسكن البدوي المتمثل في خيمته أياً كان نوعها لا تستطيع مقاومة عوامل البلى وعوادي الزمن، إضافة إلى أن طبيعة أماكن الاستقرار الفصلي لا تمثل المواقع الأثرية خير تمثيل. ولذا فإن المصدر الوحيد الذي يعول عليه يتمثل في الموروث الشعبي أو الروايات المدونة في مؤلفات كتاب صدر الإسلام. وقد تميزت القصور، بصفة عامة، بكونها مساكن علية القوم، ولذا فإنها لا تعكس بالضرورة حالة المسكن السائد في الحواضر القديمة والذي يسكنه الحرفي والتاجر والمزارع والخادم. وعلى الرغم من أن التنقيبات الأثرية التي أجريت في عدة مواقع من الجزيرة العربية أمدتنا

صورة جوية لقرية الفاو

بمعلومات قيمة عن كثير من جوانب حياة سكان تلك المواقع، إلا أن الإجابة الشافية عن نمط المساكن وتخطيطها يظل دون مستوى تلك المعلومات.

وإذا ما تلمسنا إجابة ترضي طموحات القراء بمختلف مستويات ثقافاتهم، فإن مدينة قرية وتسمى الفاو ستكون بمثابة حجر الزاوية في إمدادنا بمعلومات يعول عليها عن مساكن عامة الناس بمختلف أوضاعهم الاجتماعية وإمكاناتهم المادية.

تتكون قرية الفاو -التعريف بها- من عدة أحياء ترتبط بشوارع فسيحة وطرق مستقيمة. وقد شيدت مبانيها متراصة ومتناسقة على تلك الشوارع والطرقات. ويتكون البيت بصفة عامة من طابقين، إما بمدخل واحد من الدور الأرضي يرتبط بالدور الثاني بدرج داخلي، أو بمدخلين مستقلين لكل دور، أحدهما للدور الأرضي والآخر يرقى إليه بدرج خارجي للدور الثاني. وفي الحالتين لابد من وجود مرقاة داخلية توصل ما بين الدورين. ويتكون الدور الأول من عدة غرف، إما متقابلة يفصل بينها دهليز واسع، أو يدخل لإحداهما عن طريق الغرفة الأخرى. وتوظف غرف الدور الأرضي لسائر الخدمات وتتوقف سعة الغرفة وشكلها على الوظيفة التي تؤديها.

فهناك غرفة الطبخ، وهي أصغر من المجلس أو غرف النوم، وبها موقد للنار وعدد من المطاحن الحجرية. ثم غرف

مخطط لجانب من المنازل السكنية بقرية الفاو

التخزين، وهي مجمع لعدد من الخزائن مبنية بالطين ومطلية بالجص، وتستخدم لخزن الحبوب والتمور ويتوقف حجمها على الوضع المادي للساكن. أما المجلس فأكبر الغرف ويزود بعض المجالس بدكة على الحائط ليجلس عليها كبير الأسرة أو الضيف. ويصعد إلى الدور الثاني بدرج صغير، إما باتجاه واحد أو باتجاهين يفصل بينهما بسطة صغيرة. ويفضي الصاعد إلى حمام يقع غالباً في أحد الأركان الرئيسية للبيت، وينقسم إلى قسمين أحدهما لقضاء الحاجة والآخر للاستحمام. ونظراً للخراب الذي تعرضت له الفاو لم يعثر على منزل بدورين في حالة سليمة، إلا أن التخطيط العام للدور الأرضي إضافة إلى ارتفاع مداميك الحيطان والجدران الداخلية يؤكد وجود الدور الثاني.

والعامل المشترك في منازل قرية الفاو وجود غرفة أو أكثر خاصة بالحياكة تؤكدها تلك الكوات المثقوبة في جدرانها التي تثبت فيها آلة الحياكة. وهناك منازل يختلف طراز بنائها ويشذ عن القاعدة وهي قليلة، ويستنتج من الكتابات التي على جدرانها والصور المرسومة والأشكال القريبة أنها كانت عيادات يمارس فيها التطبيب. وتكاد لا تجد جداراً في عامة البيوت يخلو من

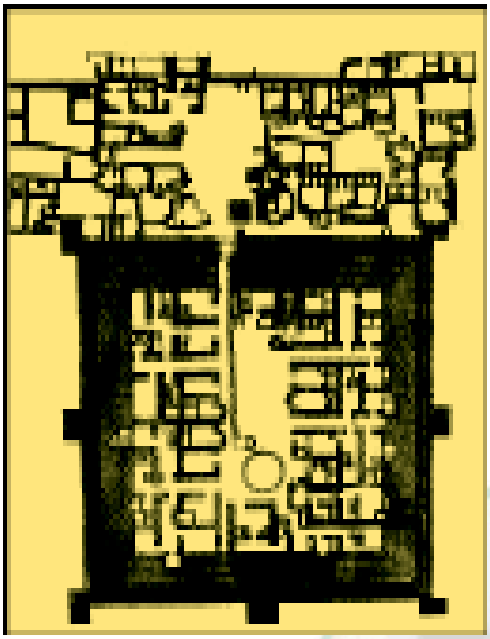

مخطط لمباني السوق الداخلي والخارجي بقرية الفاو

كتابة كأسماء أشخاص، أو دعاء رب، أو توله على حبيب، أو شكوى من ظلم، أو تودد إلى قريب، وهي منقوشة على طبقة الجص بطريقة عفوية. وإذا ما أعيت الكاتب شجونه فلن يتردد في كتابة ما يجول بخاطره على الجدران، مثل: فلانة تحب فلاناً، فلان يحب فلانة، أولئك عاشقان وهكذا، وربما وجدت طبقات عدة من الجص يعلو بعضها بعضاً، وكل طبقة تحمل الأفكار نفسها والنقش نفسه. والكتابة الشائعة كانت بخط المسند الجنوبي.

وأما المعثورات التي وجدت داخل المساكن فتعكس التقدم الحضاري الذي

بلغته قرية الفاو وتظهره بجلاء. فمن ذلك أن المراحيض مزودة بمقاعد مقطوعة من الصخر مهيأة بطريقة تؤدي الغرض وترضي الذوق المعماري ولا تكاد تختلف عن مقاعد مراحيض أيامنا هذه المصنوعة من الخزف الصيني والمستخدمة فيما يسمى الحمام العربي. وقد وجدت حفاظات تستخدمها النساء للوقاية أثناء الدورة الشهرية، عبارة عن لفافات من القماش المحشو بقطع قماش ناعم. ومن اللافت للنظر خلو مساكن قرية الفاو من زرائب الأغنام ومرابط الخيول أو حتى وجود مذاودها، وربما كانت ترعى خارج منطقة المساكن، في حماية الرعاة والخدم. ويوجد في مواطن كثيرة من الجزيرة العربية مبانٍ شيدت خارج النطاق العمراني أطلق عليها الآطام.

جاء في لسان العرب: الأطم حصن مبني بحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح، والجمع آطام وأطوم، واشتهرت بها يثرب (المدينة المنورة) ونجران، قال أوس بن مغراء السعدي:

بث الجنود لهم في الأرض يقتلهم
ما بين بصرى إلى آطام نجرانا

ولا تختلف الآطام عن القصور من حيث الفخامة والسعة إلا أنها تزيد عن القصور بوظيفة حربية، إذ تتخذ بمثابة مراكز دفاعية، ولذا يختار لها المواقع المرتفعة حول الحواضر. ومن أشهر آطام يثرب أطم كعب بن الأشرف، وأطم حسان بن ثابت، وقد كان النبي ﷺ إذا خرج لقتال عدوه من المدينة رفع أزواجه في أطم حسان لأنه كان من أحصن آطام المدينة، وما تزال أطلاله باقية إلى يومنا هذا.

العمارة الدينية

يراد بالعمارة الدينية تلك المنشآت المخصصة لممارسة الطقوس التعبدية كالمعابد وما يتبعها من مرافق تتعلق بوظيفتها؛ وكذلك المقابر بأشكالها المختلفة كالمقابر الرجومية والركامية والمحفورة والمنحوتة على واجهات الصخور والجبال وما اتبع فيها من هندسة الدفن وتقاليده.

المعابد. يقصد بالمعابد المباني المشيدة لغرض التعبد وتقديم القرابين. وهي منشآت عمرانية خصصت لممارسة الطقوس الدينية، ويتعبد فيها عامة القوم وخاصتهم، وذكورهم وإناثهم. ووجود المعابد في مدن الجزيرة العربية إبان فترة الممالك العربية ظاهرة عامة، ولا توجد حاضرة تخلو من المعبد، بل اشتهر كثير

من تلك الحواضر بمعابدها. فمدينة الفاو سميت قرية ذات كهل. وكهل أهم المعبودات الرئيسية في المدينة وهو الذي أشارت إليه الكتابات وهو يرمز للقمر. وآثاره ما تزال موجودة إلى اليوم، كتابة ورسماً على سفوح جبل طويق، وعلى جدران سوق الفاو ومنازل سكانها ومجامرهم وعملتهم التي سكت في تلك الحاضرة. والمعبد في مطلق اللفظ يشمل كل مكان تُعُبِّدَ فيه، سواء كانت العبادة لتمثال أم لغيره. وقد اتخذ سكان الحواضر والمقتدرون منهم بيوتاً وكعبات تؤدى فيها العبادة لأصنامهم.

وذكر أن وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي كان قد اتخذ له صرحاً بالحزورة، وهي سوق كانت بمكة، وكان يرتقي إلى ذلك البناء بسلالم. ومن الأسماء التي أطلقت على بيوت العبادة الطاغوت والجمع طواغيت، وهي بيوت عبادة عظمها العرب في جاهليتها.

وقد يضاف لفظ بيت إلى المعبود المقصود بالعبادة، فيقال: بيت مرب وبيت ريام، أي معبد مأرب ومعبد ريام. وبيت ريام فيما يرويه ابن الكلبي كان لحمير بصنعاء، وكان الناس يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح.

والكعبة -كما جاء في لسان العرب- أشهر بيوت العبادة في جزيرة العرب، وهي بناء مربع، وكل بيت عبادة مربع يعد كعبة عند العرب، والكعبة الغرفة. وكان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل ذو الكعبات، ذكره الأسود بن يعفر في شعره فقال:

والبيت ذي الكعبات من سنداد

وتقابل كلمة المعبد في العربية كلمة Temple في الإنجليزية، وتعني بناءً مربعاً، بمعنى كعبة في كلتا اللغتين. واللفظتان تتفقان معنى ومضمونا في شكل البناء وطرازه ووظيفته. ومن أشهر المعابد التي شيدت في عصر الممالك العربية معبد يحا في أكسوم بالحبشة، ويعد أقدم بناء وثني بنمط يمني خارج الجزيرة العربية. وهو مربع التصميم، وجداراه الجانبيان أملسان، وجداره الأمامي وحده مزين بانخفاض عمودي أقيم فيه الباب الذي

أطلال معبد روافة – جنوب غرب تبوك

يوصل إليه مـدخل من سلالم، وتعلو جداره نافذتان.

ويوجد فـي المملكـة أطلال معابد شيدت في مواضع كثيرة يعود بها التاريخ إلى فتـرات متباينة إبـان عصر الممالك العربية. ويعد معبد سين ومعبد ود ومعبد كهل في الـفاو من أكبر الشواهد عـلى تلك المنشآت العمرانية.

ومعبد ود بناء مربع على دكة يُصعد إليه على أربع درجات يليها درجة خامسة تفضي إلى مصطبة مستطيلة توصل إلى باب المـعبد المـواجه للشـرق، ويجتـاز الداخل إلى المعبد عتبة تفصل أرضية المعبد عن المصطبـة الخارجية. ويحف بالدرج كتفان مدرجان عن يمين الصاعد إلى المعبد وشمالـه، وقد ثبت عـلى واجهتيـهما لوحات برونزية نقش عليهما بخط المسند مراسم البناء ومصادر تمويل بنائه.

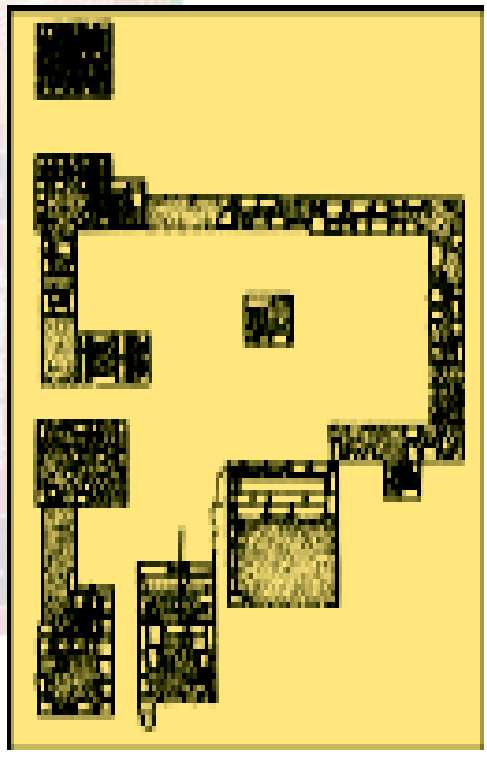

مخطط لمعبد بقرية الفاو

وما يزال المعبد بحالة جيدة محتفظاً بالكـثير من الرمـوز المعماريـة المرتبطة بعبادته، فعلى سبيل المثال يعلو الكتف الأيمن في الجهة الشمالية حوض ربما كان لوضع ماء للتبرك به، أو لوضع الهبات والقرابين. وقد ثبت فـي مدماك الجدار الشمالي للمعبد ميزاب لتصريف السوائل من الداخـل إلى الخارج، وتوجـد كوّة (مشكاة) في الجدار الجنوبي داخل المعبد.

وبعيداً عن التفصيلات الدقيقة المتعلقة بوظيفة المعبد وتخطيطه، فهو يُعد تحـفة معمارية تبرز مهارة البنّاء العربي وتعكس رقي ذوقه وسمو تفكيره.

ويلحق بالمعابد بـصفة عامة مصادر للماء، إما عبر قنوات إذا وجدت بئر في حرمه أو بالقرب منه، وإما في خزانات يتعهدها السدنة ويحرصون على أن تكون مملوءة دائماً. وتوافر الماء في المعبد ضرورة دينيـة تفرضهـا طقوس العـبادة، إذ إن العبادات لا تـؤدى إلا في حالة طهارة المتعبد، عـلاوة على ما تتضمنه عقـائد

القوم من تقديس لمياه المعابد وحرصهم على التبرك بها شرباً أو غسلاً.

ومن المعابد المبنية ما يطلق عليه العرش، والعرش -والكلام لابن منظور- لفظة ذات معان كثيرة، ولكنها في الأصل تعني سرير الملك، ولذلك فهي ترمز إلى الفخامة والعظمة، قال تعالى ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ (النمل: ٢٣) وتأتي بمعنى البيت والمنزل، والجمع عروش. ومن معاني لفظة عرش المجازية العزة والكرامة، يقال «ثُلَّ عرشه»: هدم ما هو عليه من قوام أمره، قيل وَهَى أمره وذهب عزّه، قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها
وذبيان إذ زلت بأحلافها النعل

وقد كان للعرش مهام دنيوية إضافة إلى وظيفته الدينية، ولذا كان بمثابة المنبر في محراب المسجد، وكان غالباً ما يشاد في الساحات العامة ويكون مرتفعاً يرقى إليه بدرج، ويكون مواجهاً للساحة ولا يرتقيه إلا أصحاب الشأن وذوو المكانة في المجتمع، ومن فوقه تلقى الخطب ويعلن القرار ويُبت في الأمر.

ومن الأمثله الأثرية الدالة على العرش ذلك البناء المشيد في قرية الفاو، ويقع بين منطقة السوق والمنطقة السكنية، ويتكون من بناء مربع مصمت يرتفع عن مستوى الأرض المحيطة به بما يزيد عن المترين، ويرقى إليه بدرج مواجه للساحة العامة الملاصقة لمعبد سن.

وكان بنجران بيت عبادة عرف باسم كعبة نجران تذكر الروايات أن بني عبد المدان أقاموها مضاهاة للكعبة المشرفة. ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها وكونهم أساقفة أنها كانت بيعة (كنيسة) أسسها النصارى، وكانت لبني الحارث بن كعب ويشرف عليها بنو عبد المدان.

وقد ورد ذكرها في شعر ينسب للأعشى إذ يقول:

وكعبة نجران حتم عليـ
ـك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح
وقيسا هم خير أربابها

وقد اشتهرت كعبة نجران وطبقت سمعتها أرجاء الجزيرة العربية، وأكثر من ذلك قصة أصحاب الأخدود التي وردت في القرآن الكريم في سورة البروج ﴿قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (البروج: ٤-٨). وهي حادثة مرتبطة بالديانة

المسيحية التي كانت سائدة آنذاك. وكانت كنيسة نجران رمزاً لها. وقد طبقت شهرة كنيسة نجران الآفاق، وكانت من أهم المزارات الدينية، وبقيت كذلك حتى مبعث الرسول ﷺ. وتورد حوادث السنة العاشرة من الهجرة قدوم وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة وطلبهم مباهلة الرسول ﷺ ثم عدولهم عن ذلك ومصالحتهم معه ﷺ.

ولم تسفر الدراسات الأولية والبحوث الميدانية للأخدود عن منشآت عمرانية لنتلمس من خلالها مكان تلك الكنيسة أو تخطيط بنائها، إلا أن فيلبي Philby، وقد زار خرائب المدينة وأطلالها، يذكر أنه شاهد بقايا معمارية توحي بأنها كانت مزاراً لضريح ينسب إلى عبدالله بن الثامر أحد قساوسة نجران.

الكعبة المشرفة. بيت الله الحرام، قال تعالى ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ (البقرة: ١٢٥). وإليها يتجه المسلمون في صلواتهم. قال تعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾. (البقرة: ١٤٤). فالاتجاه إليها ركن من أركان الصلاة، وحجها ركن من أركان الإسلام، لمن استطاع إليه سبيلا.

والمرجع الصريح في تاريخ الكعبة المشرفة القرآن الكريم، وهو القول الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ يخبر الله سبحانه وتعالى أن أول بيوت العبادة الخالصة له هي الكعبة المشرفة. قال تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

وقد شيدها سيدنا إبراهيم، يساعده ابنه إسماعيل عليهما السلام. قال تعالى ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة: ١٢٧)، وورد في بنائها آراء كثيرة مختلفة. وبقيت الكعبة مركزاً لعبادة الله تعالى من قبل خلفاء إبراهيم وأبنائه، وهي الديانة التي عرفت بالحنيفية التي وضع أسسها سيدنا إبراهيم بتوجيه رباني. وبقيت على ذلك ماشاء الله، حتى انحرف الناس عن ملتهم واختلفوا في معبوداتهم فأحيطت الكعبة المشرفة بالأصنام والأوثان. تذكر الروايات أنه كان بالكعبة عندما دخلها المسلمون في عام الفتح، في السنة الثامنة للهجرة، ثلاثمائة وستون صنماً. ومع تعدد

الأصنام وتنوع طقوسها واختلاف مواسمها إلا أنها لم تنبذ الجذور العقائدية والتاريخية للكعبة المشرفة كرمز تؤدى عنده عبادة الله المبنية على حنيفية سيدنا إبراهيم، فالعبادة في جوهرها لله وهو المقصود بالعبادة والمعني بالألوهية، ولكن الأصنام كانت تعظم كوسائط بين المتعبد والمعبود. وبعيداً عن اجتهادات المؤرخين وشطحات الرواة يفصل القرآن الكريم ذلك المعنى في قوله تعالى ﴿أَلا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر: ٣). ولسنا بصدد تتبع المسار التاريخي للعبادات التي مورست في الكعبة منذ بنائها فذلك مبحث له مجالات كثيرة وفروع متشابكة، ولها من المراجع ما يعجز عنه الحصر، وإليها نحيل من يرغب في الاستزادة.

كان عرب الجزيرة العربية في عصر الممالك العربية يدينون لآلهة مختلفة، شأنهم في ذلك شأن بقية الشعوب السامية، بل وشأن كافة الشعوب المعاصرة لهم. ودخل إلى دينهم كل صورة من صور حياتهم، وكانوا يرون أنه لا بد من رضا الآلهة لتوفيق كل حي ونجاح كل عمل. فكان للقبائل والأسر، بل للدول والجماعات الزراعية والتجارية أيضاً، آلهة تحميها. وكان يقام عند أداء كل عمل له أهمية احتفالات لاسترضاء الآلهة وتكريس ذلك العمل لها. وكانت المعابد والقنوات والسدود والقوانين ومراسيم الدولة، وأنصاب القبور، توضع كلها في رعاية الآلهة، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك حرمة تلك الأشياء أو يدنسها.

في مثل هذه البيئة كانت للمعابد أهمية كبرى، إذ كانت تخصص لها العشور من الزراعة والتجارة، إضافة إلى الهبات والعطايا التي كانت تقدم للمعبد التماساً لمرضاته أو تجنباً لغضبه أو شكراً لتوفيقه. وكان تعهد المعبد ورعايته واجب الكهنة فيما يتعلق بأمور عباداتهم، أما خدمة المعبد والمتعبدين فتناط بالسدنة. وقد امتازت معابد الجزيرة العربية في هذه الفترة بعدم وجود البغايا المقدسات اللواتي يقمن بخدمة المعبد، وهي ظاهرة شائعة في معابد حضارتي وادي الرافدين وبلاد الشام.

وكانت القرابين تقدم من حيوانات مختلفة، كالثيران والأغنام، ويتضح ذلك من كون المذبح أحد مقومات المعبد الرئيسية، وقد وجد مذبح في معبد ود في الفاو ضمن البناء المشيد، وكان هناك قرابين من غير دم كقرابين الشراب

والبخور. وتعكس المباخر التي وجدت في معابد الفاو وكثرتها والعناية التي صنعت بها أهمية البخور في الطقوس الدينية عند عرب الجزيرة العربية في عصر الممالك.

وتتضح أهمية خدمة المعبد ومرتاديه في وضع الكعبة المشرفة التي كانت مجالاً لتنافس شديد بين القرشيين لما لها من شرف وسؤدد. ومن تلك الأمور السدانة والسقاية، والرفادة، ولكل منها وظائف معلومة يؤديها الملتزم بها في المواسم الدينية، وكانت حكراً يرثها الصغير عن الكبير من العائلة نفسها.

المقابر

عرف الإنسان في هذه المنطقة منذ عصر مبكر قيمة موتاه واحترامهم بما يوازي تقريباً زمن بداية معرفته في أقطار الشرق الأدنى القديم الأخرى. فمنذ أن استوطن وأقام في العصر الحجري الحديث، أي قبل ٩٠٠٠ سنة، ومستوطناته تقترن بأماكن يواري فيها جثث موتاه. وخير دليل على ذلك ما اكتشف في موقع الثمامة الذي يرجع إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار، أي نهاية الألف السابع قبل الميلاد، وفي موقعين إلى الجنوب من مدينة الخماسين بخمسة وثلاثين كيلاً في وادي الدواسر في الإقليم الأوسط.

وقد استمر هذا التقليد خلال العصر الحجري الحديث الفخاري (٦٠٠٠-٣٤٠٠ سنة تقريباً) حيث نجد عدداً من المقابر في مستوطنتين مهمتين تقعان بالقرب من مدينة الدوادمي في الإقليم الأوسط. ويستمر التقليد نفسه خلال الألفين، الرابع والثالث قبل الميلاد، فلا نمر على ذكر موقع مكتشف يرجع إلى هذه الفترة إلا ويذكر أنه اكتشف حوله حقل مقابر وأحياناً حقولٌ تحتوي على مقابر بأنماط مختلفة في تصاميمها من مقبرة لأخرى، مما يدل على تدرج استيطاني.

وتطورت خلال هذا الألف عمارة المدفن إلى ما يعرف باسم مقابر التلال الركامية والمقابر الرجومية. وبدأ في أول الألف الثاني قبل الميلاد ظهور المقابر المنحوتة في باطن الأرض إلى جانب استمرار النوعين الآخرين. ويستمر الدفن على هذا النمط حتى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد حيث يظهر فن جديد في الدفن يعرف باسم المقابر المنحوتة واجهاتها على سفوح الجبال. وعايش هذا التقليد بدوره التقاليد التي ذكرناها آنفاً، ولذا أصبح أكثر من نموذج للدفن يستخدم في المستوطنة الواحدة.

وتعد المقابر المنحوتة في واجهات الجبال أقدم أنواع المقابر التي ذكرت في الدراسات الأثرية الحديثة، فالرحالة الأوربيون تمكنوا من مشاهدتها في مدائن صالح في منتصف القرن التاسع عشر. وقد استمر الاهتمام بهذه المقابر لأنها تحمل جوانب فنية ونقوشا مكتوبة، فكُتب عنها الكثير، مما يفيد أن تاريخها يعود للقرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، وأنها ظهرت بتأثير من الشمال عبر ما يسمى بالحضارة النبطية حسب ما يذكر بعض الباحثين. أما المقابر المنحوتة على جبال العلا في منطقة الخريبة فإنها نالت دراسة مماثلة، مفادها أن تلك المقابر قد تعود للقرن السادس قبل الميلاد. وتجدر الإشارة إلى أنه لم ينقب عن شيء من هذه المقابر على الرغم من الاعتقاد السائد بأنها قد نهبت في القرون الغابرة.

أما المقابر الرجومية ومقابر التلال الركامية فإن تاريخ البحث فيها أقصر عمراً وأقل حجماً مما أنجز في المقابر المنحوتة على واجهات الجبال، على الرغم من أن عددها وانتشارها الجغرافي يفوق بكثير المقابر المنحوتة على واجهات الجبال. فأول الأخبار عنها نجدها في تقارير الرحالة الذين ارتادوا المنطقة الشرقية في منتصف القرن الحالي. واستمرت التقارير تذكر تلك المقابر حتى عام ١٩٦٨م عندما مسحت البعثة الدانمركية الثانية جزءاً واسعاً من الإقليم الشرقي وأفادت عن وجود عدد كبير منها. واتصل حصر تلك المقابر خلال أعمال المسح الشامل لآثار المملكة حيث أفادت تقارير المسح عن وجود تلك المقابر في الأقاليم الستة، مع وجود تنوع من إقليم لآخر. أما أعمال التنقيب عنها فإنها قليلة، ويعود أقدمها إلى نهاية الخمسينيات من هذا القرن عندما نُقب عن اثنتين من هذه المقابر مصادفةً خلال إجراء أعمال إنشائية في منطقة الظهران. وقد سرق لصوص المقابر عدداً قليلاً منها. وفي عام ١٩٦٨م نقبت البعثة الدانمركية عن أربعة منها في واحة يبرين، وخلال أعمال المسح الشامل نقب عن عدد قليل منها اقتصر على مقبرة أو اثنتين في كل إقليم من أقاليم المملكة. وفي عام ١٩٧٩م نقب عن عدد قليل في مدينة تيماء القديمة. وابتداءً من عام ١٩٨٣م نفذت أربعة مواسم تنقيبية في حقل يقع إلى الجنوب من مطار الظهران. ونشرت جميع هذه الأعمال في تقارير أولية.

أما تاريخ البحث في المقابر المحفورة في باطن الأرض فإنه أقصر من تاريخ البحث في الموضوعين المذكورين أعلاه.

ويقتصر العمل المنجز فيه على تنقيب عن عدد قليل في مدينة تيماء القديمة، وعدد آخر في منطقة ليلى في وادي الدواسر، وعدد غير قليل في قرية الفاو.

المقابر الركامية. يطلق هذا الاسم على نوع من المقابر تظهر بهيئة أكوام من الحجارة المتراكمة، وهي تشتمل على أنماط متنوعة سوف نأتي على ذكرها. وينتشر هذا النوع من المقابر في جميع أجزاء المملكة، فيندر أن يخلو تقرير من تقارير المسح الشامل الذي أنجزته إدارة الآثار والمتاحف السعودية من ذكر له. وتقترن عادة هذه المقابر بمنشآت معمارية أخرى دالة على الاستيطان الدائم، مثل الدوائر الحجرية، والمنشآت المذيلة، وغيرها. وتوجد المقابر الركامية بتجمعات تختلف في عددها من مكان لآخر. ففي بعض الأماكن يصل العدد إلى الآلاف، وأحياناً يقتصر العدد على بضع عشرات منها. وهي تظهر بأنماط متنوعة تشتمل على النمط الدائري المجرد من أي ملحقات والمبني بحجارة غير مهذبة وغير منتظمة، والنمط الدائري المستوي ذي الأساسات المبنية بعناية. وكذلك النمط الدائري المزود بذيل مبني باستخدام ركائز حجرية صغيرة يبعد بعضها عن بعض بمتر أو مترين، إضافة إلى النمط الدائري المزود بذيل من ركائز حجرية صغيرة منفصلة تكون على شكل مستطيل أو شبه منحرف. والنمط الدائري الذي يحيط به سور دائري يبنى عادة برص الأحجار أفقياً.

وتختلف هذه المقابر في أحجامها، وارتفاعها، وأطوال الذيول الملحقة بها. فمنها ما يبلغ قطره أكثر من ٤,٢٠م، أو ما يبلغ قطره ٣م أو أقل من ذلك. أو ما يبلغ ارتفاعه ٣,٢٤م، أو ما يبلغ متراً واحداً أو أقل. وقد يكون طول الذيل ٥م، ويصل أحياناً إلى ٤٠٠م وأكثر.

واستناداً إلى المعثورات الأثرية المكتشفة فيما تم تنقيبه من هذه المقابر، وأسلوب العمارة والتقسيم الداخلي لتل من التلال، يتبين أنها مقابر جماعية، تضم في بعض الأحيان أسراً تجمع الرجال والنساء والأطفال. وقد تكون أحياناً أخرى مقابر فردية صغيرة، أو مقابر لحيوانات، خاصة الجمال والماعز، أو مقابر خالية أُعدت للدفن ولسبب من الأسباب لم تستخدم، أو للتحايل على لصوص المقابر لكي لا يتوصلوا إلى المقابر الحقيقية وسلب المعثورات التي تودع عادة مع الموتى.

ومن الناحية الزمنية تم التوصل، وفقاً للأسس المذكورة أعلاه، إلى أن أقدم هذه المقابر تؤرخ من نهاية الألف الثالث

قبل الميلاد، وآخرها من القرن الخامس الميلادي. وخلال هذا الامتداد الزمني يعتقد أن بعضها أعيد استخدامه خلال فترات متعددة، وبعضها سرقت حجارته وشيدت بها مقابر أحدث عهداً، وبعضها بقي على حاله وأضيف إليه مرافق أحدث تاريخاً منه.

وقد استخدم في عمارة هذه المقابر الأحجار المتوافرة في المنطقة، خاصة الجيرية منها المهذبة وغير المهذبة، كما استخدمت المونة الطينية والجصية في ربطها.

وتتكون المقبرة الركامية عادة من بناء دائري الشكل يحتضن في وسطه غرف الدفن الرئيسية التي تكون على شكل مستطيل في أغلب الأحوال، ولكنها قد تظهر بشكل دائري أو بناء مدرج على هيئة (زاقورة). وتكون غرف الدفن في بعض هذه المقابر غرفتين متوازيتين في وسط الجدار الدائري المحيط، وتظهر أحياناً ثلاث غرف دفن رئيسية في المقبرة الواحدة. ووجد في بعض الحالات مقابر ثانوية، في داخل المساحة المحاطة بالجدار الدائري، بعضها في الداخل والآخر في الخارج.

ويبنى الجدار الدائري للمقبرة بكتل من الحجارة مثبتة على الأرض مباشرة، وتكون بارزة للخارج ومدعومة بردم

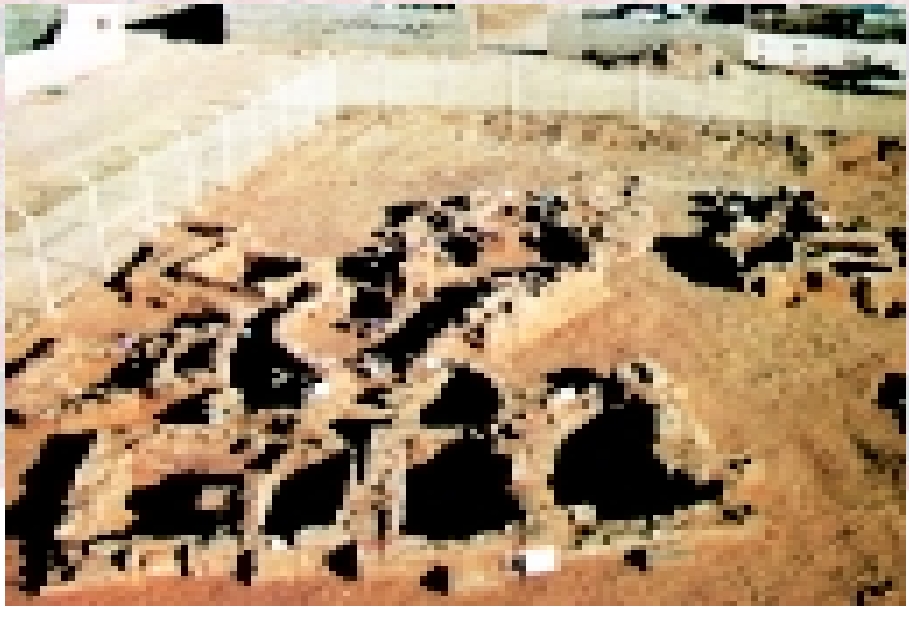

مقابر ركامية تحتضن غرف دفن مبنية – تيماء

الأتربة عليها. وقد تكون كتل الحجارة منتظمة ومهذبة، وقد تكون مرصوصة بأسلوب معماري عشوائي. كما تبنى غرفة الدفن على مستوى الأرض مباشرة، وأحياناً تحت مستوى الأرض بحوالي ٣٠-٤٠سم، وأحياناً تبنى فوق مستوى الأرض بالمسافة نفسها تقريباً. ويلاحظ أن الغرفة تضيق كلما اتجهت إلى أعلى حيث تقصر المسافة. ويغطى القبر بقطع من الحجارة قد تكون واحدة أو أكثر وقد تصل في بعض الأحيان إلى خمس قطع. وفي بعض الأمثلة تكون هذه القطع مغطاة بطبقة جصية. ويلاحظ أن الأجزاء السفلى من الجدران بنيت بعناية أكبر، وبقطع من الأحجار أكثر جودة من تلك المستخدمة في بناء الأجزاء العليا.

أما أرضية القبر فتكون مفروشة بكسر من حجارة صغيرة خلط معها مونة طينية ثم رشت لتتماسك، كما تكون أحياناً مدكوكة بمونة طينية معدة لهذا الغرض. وفي بعض المقابر وجد أن الأرضية الطينية المدكوكة غطيت بطبقة من الطلاء الجصي. ووجد في بعضها أدلة على تزويدها بعتبات حجرية، وفي بعض المقابر ترتكز على الأعتاب أبواب مكونة من قائمين من الأحجار الرأسية. كما وجد في بعض المقابر كوات جانبية.

المقابر الرجومية. يطلق هذا الاسم في بعض التقارير الأثرية على نوع من المقابر يأتي على شكل رجم. ويوجد عادةً مقترناً بمنشآت أخرى كالدوائر الحجرية، والمنشآت المذيلة. وقد يوجد في تجمعات كبيرة وقد يقتصر وجوده أحياناً على ثلاثة رجوم أو أقل.

والمتمعن فيما نشر بخصوص هذه المقابر لا يجد حرجاً في أن يعدها نوعاً من المقابر الركامية، سوى أنها أقل منها إتقاناً وحجماً، واستخدمت الحجارة في ردمها، وأنها أقل في عدد المدافن إذ يقتصر الدفن في المقابر الرجومية على شخص واحد في أغلب الأحوال. ومن الناحية الزمنية فهي تغطي امتداداً زمنياً يبدأ من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار وحتى العصر الإسلامي. ولا يوجد أي تصنيف يوضح ذلك التنوع.

ويستخدم في عمارتها أسلوب يقتضي حفر غرفة في الأرض بعمق قد يصل إلى المتر، ثم يحدد ذلك بألواح حجرية غير مهذبة، من غير استخدام مونة، وتكون مرتكزة على الأرض. ويوضع بعد ذلك عليها غطاء القبر المكون من ألواح حجرية، وقد يقتصر على لوح كبير، أو أكثر من لوح واحد بحجم أصغر. ثم يردم المكان بقطع من الجلاميد

المتنوعة، ويحدد إطارها بألواح حجرية لتأخذ شكل رجم، وتمنع الألواح قطع الجلاميد من التناثر. ويكون الرجم في حالات كثيرة مجرد ردم للحجارة بطريقة غير متناسقة، وينقصها أي أسلوب للبناء.

ومن وصف جفري بيبي Bibby لما وجده في واحة ييرين في الإقليم الشرقي للمملكة يتبين أن القبر حفرة في الأرض محددة بألواح موضوعة بشكل رأسي، ثم يعلوها حجر الغطاء الذي يكون أكثر من قطعة، ثم يوضع على جوانب القبر دبش من الحجارة ليأخذ في النهاية شكل الرجم. ويبدو من الوصف الذي أورده دانيل بوتس D. Potts لما وجده في الإقليم الشرقي أن الدبش يحدد بجدار يحميه من التناثر.

ويظهر الرجم بأشكال متنوعة، الشائع منها الشكل الدائري، والمربع، والمستطيل. كما أنها تتفاوت في أحجامها، فمنها ذو الحجم الذي يصل إلى بضعة أمتار في قطره، إلى متر ونصف متر في ارتفاعه. كما وجد من بينها رجوم بأحجام أقل من هذا بكثير. ووجد في بعضها مداخل مسدودة بالحجارة، وحجرات دائرية صغيرة، كما أن بعضها مبني بالحجارة على شكل جدران تميل إلى الداخل لتأخذ في النهاية شكل قبة، ويحتوي بعضها على أساسات مربعة.

المقابر المحفورة. وجد هذا النمط من المقابر في مناطق متعددة من المملكة في جنوبها الغربي ووسطها وشرقها وشمالها الغربي. ولعل أكبر عدد مكتشف منها حتى الآن هو في منطقة ليلى والأفلاج في منطقة الرياض حيث وصل العدد إلى مائتي مقبرة. وتفيد الأبحاث المنشورة أن هذه المقابر تعود لأزمنة مختلفة تبدأ في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتستمر حتى القرن الخامس للميلاد.

ويظهر هذا النوع من المقابر على سطح الأرض قليلاً حيث تعلوه مبانٍ

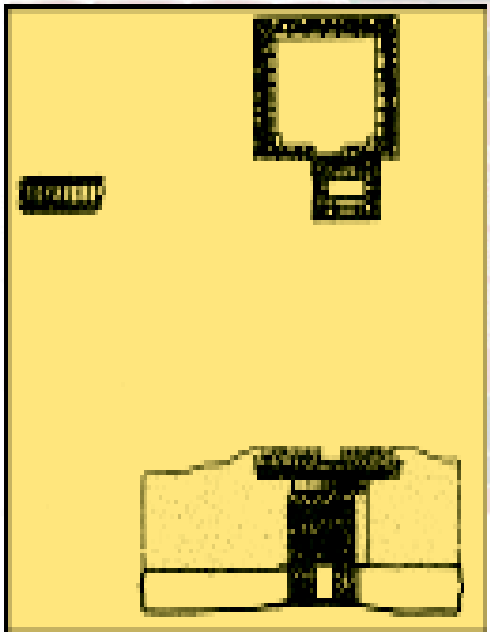

مخطط لمقبرة الملك معاوية بن ربيعة – قرية الفاو

على شكل غرف يتوسطها سرداب هابط لغرفة الدفن. وتكون أشكال المقابر إما دائرية أو مستطيلة أو مربعة، وهي مقابر عائلية.

ويُجعل للمقبرة مهبط مقطوع في الحجر الجيري، إما أن يكون مزوداً بدرج مقطوع من أرض المهبط مباشرة، أو درج مبني باستخدام قطع حجرية مجلوبة من خارج المكان ومعدة لهذا الغرض، ثم ممر يؤدي إلى غرف الدفن التي تكون منحوتة في باطن الأرض، وينخفض سطحها عن أرضية المهبط بمتر أو متر ونصف في بعض الأحيان. ولعل أوضح مثال على ما سبق، المقابر المكتشفة في الفاو وما اكتشف فيها. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المقابر يكون محفوراً في باطن الأرض وسطحها مفتوح. ثم تحاط جوانبها بجدران مبنية بحجارة خشنة، ويغطى سطحها بقطع ضخمة من الحجر الرملي. وتشتمل غرفة الدفن أحياناً على غرفة أصغر منها مقطوعة في أرضها بعمق يصل إلى ٥٠سم وعرض قدره ٧٠سم. وتحتوي بعض المقابر على قواطع، إما حجرية أو طينية تقسم غرفة الدفن إلى غرفتين. كما أن القواطع تختلف، فمنها الجيد ومنها الرديء غير السميك.

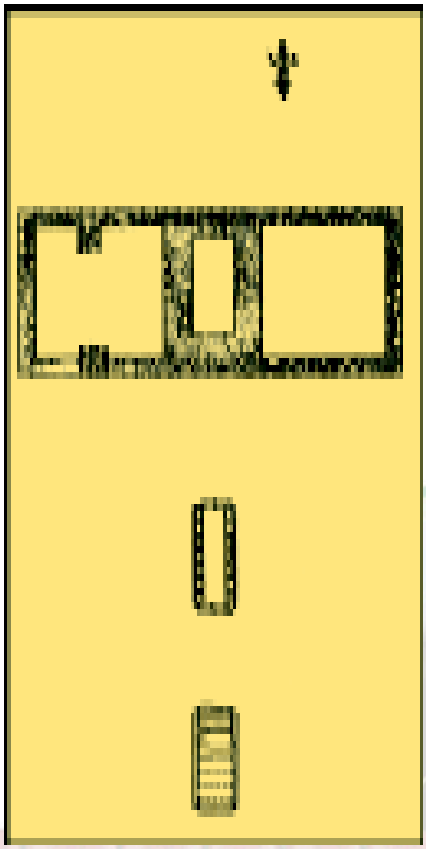

مخطط لمقبرة عجل بن هفعم – قرية الفاو

المقابر المنحوتة. تعد المقابر المنحوتة أسلوباً معمارياً حديثاً في عمارة المقابر القديمة التي وجدت في المملكة إذ تعود بدايته إلى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، واستمر ظهور هذا النمط حتى أوائل القرون الميلادية. ويقتصر انتشاره على شمال غربي المملكة في منطقتي تبوك والمدينة المنورة حيث ينتشر في واحة العلا ومدائن صالح ومغاير شعيب. وأكثر هذه المقابر مدافن جماعية مقتصرة على

استخدام أسر معينة يحددها صاحب المقبرة في نص يعلو واجهة المقبرة في أغلب الأحوال.

ويعتمد الأسلوب المعماري في هذه المقابر على عملية النحت. إذ يختار النحات عادة أماكن في واجهات الجبال ذات الصخور الرملية، ثم يقوم بعمل غرفة ترتفع قليلاً عن مستوى الأرض ويبدأ في تفريغها بحيث تأخذ شكل مربع أو مستطيل. وتزود هذه الغرف بكوات جانبية بشكل مستطيل أو مربع. ويقوم النحات بعد ذلك بنحت القبور في أرضية الغرفة الصخرية، أو في أرضية الغرف المتفرعة من الغرفة الوسطى. ويختلف عدد القبور تبعاً لحجم الغرفة والغرف الصغيرة المتصلة بها، وكذلك حجم القبور نفسها.

وقد اهتم المعماري بالواجهة الخارجية للمقبرة فنحتها بطريقة تجعلها شبيهة بواجهة المنزل. فزودها ببوابة للمقبرة تنحت عادة وتزخرف بأشكال هندسية تعلوها مباشرة، كما يوجد أحياناً إطار داخله نص نبطي لصاحب المقبرة أعلى البوابة. وتأخذ الأشكال الهندسية العليا غالباً أشكال مثلثات تتفاوت في تصاميمها من مقبرة لأخرى، وينحت في داخلها مناظر مختلفة لحيوانات أو زواحف أو طيور أو ورود لها دلالات عقائدية، ويجمع أحياناً بعض منها في نموذج واحد. وتُحلى المقبرة بنحت لأنصاف أعمدة رأسية مزودة بأنصاف تيجان وشرفات على شكل درجات سلم في أعلاها. وهذه الواجهات تمثل قمة العمارة

واجهتان لمقبرتين منحوتتين في الجبال – مدائن صالح

القديمة والمعاصرة لها عند نحتها في مشهد جمالي أخاذ.

وفي واحة العلا يأخذ القبر أسلوباً معمارياً مختلفاً، إذ يمر بتسوية لواجهة الجبل ثم يفتح فتحة في الجبل وتغوّر داخل الجبل بعمق مترين تقريباً باتساع متر. ويزود المدخل بإطار يحمل نصاً لحيانياً أو معينياً يحتوي على معلومات عن أصحاب المقبرة. وينحت على جوانب المقبرة الخارجية أحياناً شكلان لأسدين رابضين.

وقد استخدم الإنسان في هذه المنطقة المقابر في تاريخ يماثل تاريخ استخدامها في كثير من بقاع عالم الشرق الأدنى القديم. فلقد عرفها في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار بأشكال الرجوم البسيطة التركيب. ثم ظهرت خلال العصر الحجري الحديث الفخاري الرجوم ذوات الحجم الكبير المتعدد القبور، بالإضافة إلى الرجوم التي يلحق بها ملحقات. وخلال الألف الثالث ظهرت التلال الركامية، ثم ظهرت المقابر المحفورة في الأرض خلال الألف الثاني قبل الميلاد. وفي الألف الأول قبل الميلاد ظهرت المقابر المنحوتة في واجهات الجبال. واستمرت هذه التقاليد جنباً لجنب في بعض المواقع ولكن اقتصر استخدام بعض أنماطها على بعض المواقع.